موقف النحاة من ظاهرتي التضمين والنيابة بين حروف الجر

(دراسة تطبيقية في بعض آيات القرآن الكريم)

د. ليلى رمضان محمد انفيص (*)

كلية التربية أبي عيسى – جامعة الزاوية

الملخص:

ظاهرة التضمين والنيابة بين حروف الجر تعد وسيلة من الوسائل اللغوية التي تسهم إسهاماً كبيراً في اتساع اللغة العربية وإثرائها، وذلك بما يدل عليه اللفظ الواحد من معانٍ متعددة، وهذا لا شك فيه يكسب اللغة مفردات ومعاني عدة ، كما يكفل لها النمو والتجديد لمواكبة التطور العلمي والتقدم الحضاري.

(*) Email: Laioo.Com78@Gmail.Com

وقد انقسم النحاة على مذهبين، الأول يقول بالتضمين ولا يقبل بالنيابة، وهو مذهب أهل البصرة، والثاني: يقول بالنيابة ولا يقبل التضمين وهو مذهب معظم الكوفيين.

وأيضاً خَلُصَ البحث إلى أن دراسة هذه الظاهرة يجب أن ترتكز على الدلالة السياقية في الألفاظ، والتركيز على ما تؤديه هذه الألفاظ من معانٍ مختلفة داخل السياق، وإن مجيء الحرف بمعنى الآخر يفيد فائدتين، المعنى الأصلي للحرف، ومعنى الحرف الآخر، وهذا يكسب اللغة العربية مفردات ومعانٍ داخل السياق، الشيء الذي يضمن لها النمو والتطور

وقد أجاز البصريون دخول حروف الجر بعضها مكان بعض، إما عن طريق تضمين الفعل، أو التصرف في الحرف، أو الأسلوب، وأما الذين لم يجدوا له تخريجاً فعدوا ذلك نيابة عن طريق الشذوذ، وأن كل حرف من حروف الجر موضوع لمعنى واحد، ولا ينوب بعضها عن تبعض، كما لا تنوب حروف الجزم وحروف النصب بعضها عن بعض.

والكوفيون وافقوا على استعمال حروف الجر مكان بعضها، وقال ابن جني "ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنها نقول إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له في كل موضع"، وأيَّد الكوفيون رأيهم باستقامة الأسلوب والمعنى عند نيابة حروف الجر بعضها عن بعض[1].

المقدمة

تعمل حروف الجر على ربط أجزاء الجملة بعضها ببعض، فيكون للسياق اللغوي دورٌ في تحديد المعاني المقصودة من معانيها، والسياق اللغوي هو:

" بناء نصي كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة، ودائماً ما يكون السياق مجموعة من الكلمات

وثيق الترابط بحيث يلقي ضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى وغاية الفقرة بأكملها".[2]

ولكل حرف من حروف الجر عند البصريين معنى واحد، وله عدة معان عند الكوفيين، وما ذهب إليه البصريون هو أن حرف الجر يؤدي معنى حقيّقاً واحداً، وأنَ كل ما يؤديه هذا الحرف من معانٍ مختلفة هو من المجاز أو التضمين.

أما ما ذهب إليه الكوفيون فهو أن المعنى الواحد تشترك فيه مجموعة من حروف الجر، وذلك ليس بغريب على لغتنا، كما أنَ الحرف الواحد عندهم يؤدي عدة معانٍ مختلفة وكلها حقيقي.

ففي استعمالنا اللغوي سواء ما ورد في القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو المحكي عن العرب ما يثبت ذلك، وهذا ما أكده ابن جنَي(392هـ) بقوله: " وجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يحاط به، ولعله لو جمع أكثره (لا جميعه) لجاء كتاباً ضخماً، وقد عرفت طريقه فإذا مرَ بك شيء منه فتقله وأنس به، فإنه فصل من العربية لطيف حسن، يدعو إلى الأنس بها والفقاهة فيها"[3].

وسبب اختيار هذا الموضوع هو أن هذه الظاهرة تعد وسيلة من الوسائل اللغوية التي تسهم إسهاماً كبيراً في اتساع اللغة العربية وإثرائها، وذلك بما يدل عليه اللفظ الواحد من معانٍ متعددة، وهذا لا شك فيه يكسب اللغة مفردات ومعاني عدة، كما يكفل لها النمو والتجديد لمواكبة التطور العلمي والتقدم الحضاري، وقد اسُتخْدِم المنهج الوصفي التحليلي والتطبيقي على بعض آيات القرآن الكريم.

وقد تضمَن البحث، مقدمة وتمهيد، ومبحثين:

التمهيد تضمن_ تعريف حروف الجر وعملها

المبحث الأول: موقف النحاة من ظاهرة التضمين، وقد ضمَ:

- تعريف التضمّين لغةً واصطلاحاً.
- رأي نحاة البصرة.

المبحث الثاني: موقف النحاة من ظاهرة النيابة، وقد ضم:

معنى النيابة لغة واصطلاحاً

رأي نحاة الكوفة

مع تطبيق عملي على بعض آيات القرآن الكريم وذُيل البحث بخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

(تمهيد)

حروف الجر: -

هي:" حروف ما وضع للإفضاء بفعل، أو شبهه، أو معناه إلى ما يليه"[4]

والإفضاء هو الوصول، أي: إيصال الفعل إلى الاسم، وهو تعديته إليه ليكون هذا الاسم المجرور به مفعولاً به لذلك الفعل، فيكون منصوب المحل، والمراد بشبه الفعل: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، والمصدر، والمراد بمعنى الفعل: الظرف والجار والمجرور.[5]

واختلف النحويون في عددها، ف سيبويه ذكر ثمانية عشر حرفاً، هي:" إلى _ الباء _ التاء _ حاشا _ حتى _ خلا _ ربَ _ على _ عن _ في _ الكاف _ كي _ اللام _ لولا _ مذ ومنذ_ من _ الواو"[6]، وعدّها الزمخشري ثمانية عشر حرفاً، ولم يعد لعل _ ولولا _ ومتي، من حروف الجر،[7] وذكر ابن الحاجب ثمانية عشر حرفاً أيضاً،[8] وعدَها ابن مالك في الألفية عشرين حرفاً، قائلاً:-

هاك حروف الجر وهي: من _ إلى....

حتى _ خلا _ حاشا _ عدا _ في _ عن _ على _

مذ _ منذ _ ربَّ _ اللام _ كي _ الواو _ وتا

الكاف _ الباء _ ولعل _ ومتى."[9]

عملها وأسماؤها:

تعمل حروف الجر على جر الاسم وهذا راجع إلى أمرين: أحدهما: أنها مختصة بالأسماء؛ " لأن الغرض منها إيصال الفعل القاصر عن الوصول إلى مايقتضيه، والفعل لا يقتضي إلا الاسم..."[10].

والآخر: أنها لم تتنزل منزلة الجزء مما اختصت به.[11]

وعلّل ابن مالك سبب اختصاص الجر بالأسماء بقوله: " وخصّ الجر بالاسم لأنّ عامله لا يستقل فيحمل غيره عليه"[12]

أما أسماؤها فالمشهور منها أربعة هي: حروف الجر، وحروف الخفض، وحروف الإضافة، وحروف الصفات.

وحروف الجر أشهر هذه التسميات، ولعلّ البصريين هم أول من أطلق هذا الاسم على هذه الحروف، قال الرضي:" والأظهر أنه قيل لها حروف الجر؛ لأنها تعمل إعراب الجر، كما سميت بعض الحروف حروف الجزم، وبعضها حروف النصب..."[13]

وحروف الخفض أكثر شيوعاً في كتب الكوفيين وعملها هو خفض مدخولها أي: خفض الأسماء التي تدخل عليها.[14]

والتسمية الثالثة: حروف الإضافة؛ فلأنها تضيف معانى الأفعال وما في حكمها إلى الأسماء التي بعدها، أي توصلها إليها،[15]

والتسمية الرابعة حروف الصفات،"... وإنما سموها صفات؛ لأنها تنوب مناب الصفات وتحل محلها، فإذا قلت: مررت برجلٍ كائنٍ من أهل الكوفة، ورأيت رجلاً. مستقراً في الدار "[16]

المبحث الأول

موقف النحاة من ظاهرة التضمين

معنى التضمين:

التضمين لغة: جاء في القاموس المحيط في مادة(ضمَّن):" ضمن الشيء... ضماناً وضمناً فهو ضامن وضمين: كفله، وضمنته الشيء تضميناً فتضمنه عني. عزمته فالتزمه، وما جعلته في وعاء فقد ضمنته إياه... من الشعر: ما ضمنته بيتاً ومن البيت: ما لا يتم معناه إلا بالذي يليه... وضمن الكتاب بالكسر: طيُّهُ وتضمنه: اشتمل عليه."[17]

أما الزمخشري فقال:" ومن المجاز: ضمِن الوعاء الشيء وتضمنه وضمنته إياه... يقال: ضمن القبر الميت وضمن كتابه وكلامه معنى حسناً."[18]

- **التضمين اصطلاحاً:**

للتضمين في اصطلاح النحويين تعريفات كثيرة أهمها ما يلي:" إشراب لفظ معنى لفظ آخر، واعطاؤه حكمه؛ لتصير الكلمة تؤدي مؤدَّى كلمتين"[19].

وقد علَّق الأشموني بقوله:" ظاهرة وجوب تغاير المعنيين، وهو غير ظاهر في نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ...﴾[20]، فإن تعدية(أحسن) بالباء لتضمنه معنى(لطف)، والإحسان هو اللطف"[21]

وجاء في حاشية الأمير على المغني:" فالأولى أنّ التضمين: إلحاق كلمة بأخرى لا تحاد المعنى أو تناسبه"[22]

وقال الصبان:" فالأولى أن يقال: التضمين إلحاق مادة بأخرى في التعدي واللزوم؛ لتناسبٍ بينهما في المعنى أو اتحاد."[23]

والحرف جزء من الكلام مثل الاسم والفعل، يؤدي عدة معانٍ حقيقية، أما إذا كان معنى الحرف واضحاً لا غموض فيه في الجملة فلا حاجة لتضمينه معنى آخر، مثل قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[24] فـ(من)، الأخيرة في الآية حرف جر دلَّ على أن الله يحفظ عباده بأمره وليس من أمره[25]، فالتضمين يزيل اللبس، ويجعل المعنى واضحاً إذا كان به غموض.

رأي جمهور البصريين: –

ذهب أكثر نحويي البصرة في تخريجهم لهذه الظاهرة إلى قَصْرِ كل حرف من حروف الجر على معنى أصليّ واحد يؤديه على سبيل الحقيقة لا المجاز.

فأهل البصرة يُبْقون الحرف على معناه الذي وضُع له، بتأويل يقبله اللفظ، أو بأن يجعلوا العامل مضمناً معنى ما يعمل في ذلك الحرف، وفي رأيهم التصرف في الأفعال بالتضمين، أولى من التصرف في الحروف، وأهل الكوفة يحملون على ما يعطيه الظاهر من وضع الحرف موضع غيره.[26]

فجمهور البصريين منعوا نيابة حروف الجر بعضها عن بعض، فهم يقولون: إننا إذا قلنا بالنيابة، فهل يجوز أن، تقول:" سرت إلى زيدٍ، وأنت تريد معه، وأن تقول: زيدُ في الفرس، وأنت تريد: عليه، وزيدُ في عمرو، وأنت تريد: عليه، في العداوة، وأن تقول رويت الحديث بزيد، وأنت تريد عنه، ونحو ذلك، مما يطول ويتفاحش"[27].

ودليلهم في ذلك أن:" الأصل في كل حرف أن لا يدل إلا على ما وضع له، ولا يدل على معنى حرف آخر"[28].

فمثلاً الحرف(في) يؤدي معنى واحداً حقيقيّاً هو الظرفية، والحرف(على) يؤدي معنى واحداً حقيقيّاً هو الاستعلاء والحرف (إلى) يؤدي معنى واحداً حقيقيّاً هو الانتهاء، والحرف(عن): يؤدي معنى واحداً حقيقيا وهو المجاوزة إلى غير ذلك من حروف الجر.[29]

وقد خرَّج جمهور البصريين ومن تابعهم القول بأن الحرف الواحد من حروف الجر قد يؤدي عدة معانٍ مختلفة على عدة تخريجات:

منها ما يكون عن طريق الفعل، أي:

تضمين الفعل معنى فعل آخر، قال ابن جني:" اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر، فإن العرب قد تتوسع في معنى ذلك الآخر"[30]، نحو قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾[31]

فالكوفيون ومن وافقهم قالوا: إن حرف الجر (مِنْ) دخل مكان حرف الجر(على)، أما البصريون ومن وافقهم فإنهم يخالفون ذلك بقولهم: إن النصر تضمن معنى المنع، والتقدير: منعناه منهم بالنصر.[32]

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [33]، فقد ذهب البصريون ومن معهم إلى تضمين الرَّفث معنى الإفضاء فعدّى بحرف الجر(إلى) نحو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾[34]، وإنما أصل الرَّفث أن يتعدى بحرف الجر(الباء) فيقال: أرفث فلان بامرأته.[35]

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾"[36].

والعلماء لم يقفوا عن تضمين فعل متعدٍ معنى فعل متعدٍ آخر، وإنما توسَّعوا إلى تضمين فعل لازم معنى فعل معتدٍ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى﴾[37]، والتقدير: لا يصنعون، فأصله أن يتعدى بنفسه نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ [38]،

ولا يتعدى بحرف الجر(إلى)[39]، وذهب الزمخشري إلى هذا عندما فسَّر قوله عز وجل:" الذين يؤمنون بالغيب"[40]، فقال: إن الفعل(يؤمن) في أصله متعدٍ بنفسه ولكنه تضمّن معنى (يعترف) أو (يثق) التقدير هنا: يعترفون به أو يثقون بأنه حق.[41]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾[42] فقد عدَّى الفعل(تعزم) إلى المفعول به مباشرة مع إن الفعل لا يتعدى إلا بحرف الجر، وإنما وقعت التعدية؛ لتضمين الفعل اللازم(تعزم) معنى الفعل المعتدي(تنوي)، أي: لا تنووا عقدة النكاح.[43]

ومنه قوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ...﴾[44] فقد تضمن اسم الفاعل(مستكبرين) معنى (مكذبين)، ف" جواز تضمين(مستكبرين) معنى(مكذبين) والضمير للتنزيل الكريم أي: مكذبين تكذيب استكبار "[45]، وقيل الباء للسبب أي: يحدث لكم بسبب استماعه استكبارٌ وعتوٌ"[46]

ومما سبق يتضح لنا أن الدلالات اللفظية للفعل تحدد عن طريق السياق التركيبي للجملة.

ومنها ما خرجوه عند طريق التصرف في الحرف، وهذا يكون من وجهين:

الوجه الأول:

هو تضمين حرف الجر معنى حرف جر آخر وهو ما أطلق عليه البصريون: مجازاً[47]، أي إن الحرف إنما يؤدي معنى واحداً حقيقيَاً، وما عداه فهو مجاز أو تضمين، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ...﴾[48]،" شبَّه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعَّى في وعائه، فلذلك قيل:" في جذوع النخل"[49] فالحرف(في) معناه الحقيقي(الظرفية) ومن ثم فإن ما أدَّاه حرف الجر(في) من معنى ليس معناه الحقيقي بل المعنى الذي دلّ عليه هو(الاستعلاء) وهذا المعنى يؤديه حرف جر آخر مختص به، وهو حرف الجر(على) وعلى هذا

فإن التقدير: على جذع نخلة "لأنه معلوم أنه لا يصلب في داخل جذع النخلة قلبها..."[50]، وعلى هذا فإن الحرف (في) تضمن معنى الحرف(على).

أمَّا الوجه الثاني:

فهو أن الحرف باقٍ على أصله، وذلك كما في الآية السابقة، فالبصريون يرون أن الحرف(في) باقٍ على أصله فقالوا: " في على بابها، والمعنى أن النخلة مشتملة على المصلوب؛ لأنه إنما يصلب في عراضها لا عليها، فكأنها له وعاء أو اشتملت عليه"[51]، أو كما قال المبرّد:" الجذوع إذا أحاطت دخلت في؛ لأنها للوعاء فيقال: فلان في النخل أي قد أحاط به"[52].

والكوفيون ومن معهم قالوا: إن حرف الجر(في) دخل مكان حرف الجر(على).[53]

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[54] فقد استعمل حرف الجر(إلى) بدل(مع) على اعتبار بقاء حرف الجر(إلى) على بابها، والمعنى، " من يضيف نصْرته إلى الله، ف(إلى) في هذا أبلغ من (مع)؛ لأنك لو قلت: من ينصرني مع فلان، لم يدل على أنَّ فلاناً وحده ينصرك، ولابدّ بخلاف (إلى) فإنّ نُصْرة ما دخلت عليه محققة واقعة، مجزم بها إذ المعنى على التضمين: من يضيف نصْرته إلى نصْرة فلان"[55]

والفعل الواحد قد يعدّى بحرف في آية وبحرفٍ آخر في آية أخره، وقد علّل القاسمي ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا...﴾[56]،" عدى (أنزل) هنا بحرف الاستعلاء، وفي البقرة بحرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾[57] لوجود المعنيين، إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول _ صلى الله عليه وسلم_ فجاء تارة بأحد المعنين وأخرى بآخر"[58]، والقاسمي في هذا أخذ برأي الزمخشري وفي ذلك يقول الزمخشري" فإن قلت لمَ عدى(أنزل) في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها حرف

الانتهاء؟ قلت لوجود المعنيين جمعياً؛ لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر "[59]

فورد "إلى" و "على" بالمعنى ذاته تضميناً، وقد اتفق ورود كلٍّ منها في موضعه مع السياق اللفظي والتركيبي للآيات.

أما التخريج الثالث:

فقد خرَّجه البصريون ومن تابعهم عن طريق الأسلوب، من وجهين:

الوجه الأوّل:

أنَّ الجار والمجرور متعلق بمحذوف، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي...﴾[60]، فالبصريون ومن تابعهم ذهبوا في تأويل الآية إلى تعَلِّق الجار والمجرور بحال محذوفة، والتقدير: منصرفاً عن ذكر ربِّي، غير أن الكوفيين ومن تابعهم ذهبوا إلى أن حرف الجر(عن) جاء مكان حرف الجر(على).[61]

أما الوجه الثاني:

فهو على تقدير مضاف محذوف أي: أن حرف الجر قد دخل على المضاف إليه بدل المضاف، وعلى هذا فإن حرف الجر يبقي على أصله، وقد ورد هذا في قول امرئ القيس:

وهل يَعمَن مَنْ كان أحْدث عَهدِهِ...

ثلاثين شهراً في ثلاثةِ أحوال[62]

فذهب ابن جني، في تخريجه لهذا البيت أن التقدير:" في عقب ثلاثة أحوال"[63].

فمن هذه التخريجات وغيرها نفهم أن البصريين أجازوا دخول حروف الجر بعضها مكان بعض، إما عن طريق تضمين الفعل أو التصرف في الحرف أو الأسلوب، وأما الذي لم يجدوا له تخريجاً فعدوا ذلك نيابة عن طريق الشذوذ.

وابن السراج قال:" اعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني فمن ذلك: الباء، تقول فلان بمكة وفي مكة، وإنما جازا معاً؛ لأنك إذا قلت فلان بموضع كذا وكذا، فقد خبّرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، وإذا قلت: في موضع كذا، فقد خبّرت ب(في) عن احتوائه إياه وإحاطته به، فإذا تقارب الحرفان فإنّ هذا التقارب يصلح للمعاقبة وإذ تباين معناها لم يجز "[64]

فذهب أكثر البصريين إلى أن كلَّ حرف من حروف الجر موضوع لمعنى واحد، ولا ينوب بعضها عن بعض، كما لا تنوب حروف الجزم، وحروف النصب بعضها عن بعض، وما يوهم ذلك فهو عندهم لا يخرج عن ثلاثة أمور: إما على الفعل، أو التصرف في الحرف أو الأسلوب، وإذا تعذّر أحدهما حمل على شذوذ نيابة حرف عن آخر كما ذكره ابن هشام؛[65] وإنما قالوا بشذوذ النيابة؛ لأن الحرف موضوع لمعنى واحد، وقد يستعمل لمعنيين، ووضعه موضع غيره نيابة عنه تصرّف فيه بدون سبب وباب الحروف ألاّ يتصرّف فيها.[66]

ومن هذا نستنتج أن ظاهرة التضمين لها دورُ كبيرُ في اتساع اللغة وإثراء مفرداتها، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على غنى اللغة العربية بدلالاتها الكثيرة، التي تساعدها على التجديد وحرية التعبير حيث أنّ" اللفظ إذا أطلق وأريد به غير ظاهره؛ فإن ذلك يعدُّ ضرباً من الاتساع والتفنن"[67].

وبعد هذا العرض الموجز للتضمين يظهر لنا جلياً ما لهذه الظاهرة من دور كبير في إثراء اللغة العربية واتساعها، وذلك من خلال المعاني المتعددة للفظ الواحد، وهذا يدل دلالة واضحة على مرونة اللغة العربية، بما يضاف لها من مفردادت كثيرة تضمن لها الحرية والنمو والتجديد.

المبحث الثاني: موقف النحاة من ظاهرة النيابة

النيابة لغة:

تعني نيابة الشيء عن الشيء، قال ابن فارس" النون والواو والباء كلمة واحدة تدل على اعتياد مكان ورجوع إليه، وناب ينوب وأنتاب ينتاب، ويقال إنَّ النَّوب، النحل، قالوا وسمّيت به لرعيها ونوبها إلى مكانها، وقيل إنه جمع نائب"[68]

اصطلاحاً:

هي:" وقوع حروف الجر موقع بعضها للدلالة على المعنى، فالتناوب أن يأتي حرف بمعني حرف آخر"[69]

رأي نحاة الكوفة: -

ذهب الكوفيون إلى القول بإنابة حروف الجر بعضها عن بعض، فالحرف عندهم ما هو إلا كلمة كسائر الكلمات الاسمية والفعلية، فإنها تؤدي الواحدة منها عدة معانٍ حقيقة لا مجازية، وكذلك مثلها حروف الجر.[70]

فمثلاً حرف الجر(على) الذي يدل على الاستعلاء، يأتي بمعني(في) الذي يدل على الظرفية، نحو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[71]، أي في زمن ملكه.[72]

والكوفيون وافقوا على استعمال حروف الجر مكان بعضها، وابتعدوا عن الالتجاء إلى المجاز أو التضمين.[73]

قال ابن جني:" ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا لكنّا نقول إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له في كل موضع"[74].

وأَيَّدَ الكوفيون رأيهم باستقامة الأسلوب والمعنى عند نيابة حروف الجر بعضها عن بعض، ف"جواز وضع حرف جر مكان آخر بغير ضابط لا يتوقف على اشتراكٍ بينهما في تأدية معنى معين ولا تشابه مقيد في الدلالة... يؤدي إلى إفساد المعاني، والقضاء على الغرض من اللغة"[75].

وقد علَّ محمد الخضري استعمال حرف الجر(من) بدل حرف الجر(في) في قوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ...﴾[76]، بقوله:" لأن الله تعالى لا يريد من المؤمنين ترك أعمالهم في هذا اليوم والانقطاع إلى الصلاة والعبادة، بل طلب إليهم أن يبدأوا يومهم بالعمل، فإذا سمعوا النداء لصلاة الجمعة من بعض هذا اليوم لبّوا نداء الله تعالى مسرعين، فإذا فرغوا من صلاتهم بادروا بالعودة إلى أعمالهم"[77].

وقد استعملت (على) بمعنى(في) وذلك وقع في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ...﴾[78]،" أي: اطّلعوا عليها فعاينوها، يقال: وقف فلاناً على ذنبه: اطلعه عليه، أو أُدخِلوها فعرفوا ما فيها من العذاب، يقال: وقفت على ما عند فلان، تريد فهمته وتبنيته، والوقف عليها مجازيّ، أو هو حقيقي بمعنى القيام و(على) إما على حقيقتها، أي: أقيموا واقفين فوق النار على الصراط، وهو جسر فوق جهنم، أو هي بمعني(في) أي: أقيموا في جوف النار، وغاصوا فيها، وهي محيطة بهم، وصحح معنى الاستعلاء حينئذ كون النار دركات وطبقات، بعضها فوق بعض"[79].

ومن هذه الشواهد على نيابة حروف الجر فيما بينهما نخلص إلى أنه عندما تعددت حروف الجر واتفقت فيما بينها في المعنى، فإنما نابت مناب بعضها داخل السياق اللغوي مما أدى إلى اكساب اللغة قدرة كبيرة على التعبير.

الخاتمـــــــة

﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾[80]

وبعد: من خلال دراسة موضوع (التضمين والنيابة بين حروف الجر في السياق اللغوي، نخلص إلى:

1- أن هذه الظاهرة تعد وسيلة من الوسائل اللغوية التي تسهم إسهاماً كبيراً في مرونة اللغة العربية وإثرائها.

2- أن مجيء الحرف بمعنى الآخر يفيد فائدتين، المعنى الأصلي للحرف ومعنى الحرف الآخر، وهذا يكسب اللغة العربية مفردات ومعانٍ داخل السياق، ويكفل لها التطور والتجديد.

3- في ظاهرة التضمين لا نستطيع أن نحكم على أي معنى من المعاني بأنه تضمين إلا بعد معرفة المعنى الأصلي الذي وضع له.

4- حروف الجر ومعانيها المتعددة تساعد على فهم وتفسير الآيات القرآنية فهماً وتفسيراً صحيحاً.

5- حرف الجر له معانٍ أصلية وقد يؤدي معانٍ أخرى، وهي نيابته عن حرف آخر، وهذا ما يجعل اللغة العربية في مرونة وحرية من الاستخدام.

تلك هي خلاصة عمل متواضع أضعها بين أيديكم، فإن أصبت فهذا ما صبوت له، وإن أخطأت فلأني بشر يخطئ ويصيب... وأسأل الله أن يهدينا إلى سواء السبيل.

إنه نعم المولى ونعم النصير

والله ولي التوفيق

الباحثة

هوامش البحث

(1) الخصائص، لابن جني، تحف، الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، 1428هـ-2007. 537/2

(2) معجم المصطلحات الأدبية، إعداد إبراهيم فتحي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط1- 2000-القاهرة.

(3) الخصائص، 30/2.

(4) شرح الرضي على الكافية، رضي الدين محمد بن الحسن الاستربادي تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس. 1978: 260/4.

(5) ينظر: السابق- 261/4.

(6) الكتاب سيبويه، تحق. عبد السلام هارون، الهيئة المصرية للكتاب، 1975م، ط1: 2/ 349-373-375.

(7) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، مطبعة المثني، بالقاهرة.1988م 497/8.

(8) ينظر: شرح الرضي على الكافية، .260/4.

(9) ألفية ابن مالك في النحو والصرف: 87.

(10) اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي البقاء العكبري، تحق: غازي مختار طليمات، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 47/1.

(11) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني- للمرادي- تحق- فخر الدين قباوة موحد نديم فاضل، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 2. سنة 1983م: 26.

(12) ينظر: ألفية ابن مالك:87.

(13) شرح الرضي، .261/4.

(14) حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، المطبعة العامرة، القاهرة، 1294هـ، 2/ 203.

(15) ينظر: شرح المفصل، 8/ 7.

(16) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبد الله بن محمد البطليوسي، مراجعة، عبد الله البستاني، المطبعة الأدبية، بيروت. 1901م، 295/2.

(17) القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة_ تحق_ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة- بيروت- ط1- 1406هـ- 1986م، مادة ضمَّن: 1564.

(18) أساس البلاغة، للزمخشري، مكتبة لبنان ناشرون-ط1. 1996، مادة ضمن: 267.

(19) شرح الأشموني لألفية ابن مالك، تحق: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، 1993م، 95/2.، وينظر: مغني اللبيب، لابن هشام، تحق محيي الدين عبد الحميد، دار الشام للتراث، بيروت لبنان : 897.

(20) من الآية 100 من سورة يوسف.

(21) حاشية الصبان- 95/2.

(22) حاشية الأمير على مغني اللبيب، الأمير محمد بن محمد، دار إحياء الكتب العلمية، 98/1.

(23) حاشية الصبان: 95/2.

(24) سورة الرعد: الآية 12

(25) ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، مراجعة صدقي محمد جميل، دار الفكر، 1412هـ-1992م: ج361/1.

(26) ينظر: ضرائر الشعر، ابن عصفور، تحق، السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1982م، ص236، وحاشية الصبان: 159/2.

(27) الخصائص، 208/2.

(28) الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لكمال الدين أبي البركات الأنباري، ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط4، 1961م-ج4، مسألة 67،481.

(29) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، القاهرة 273/2.

(30) الخصائص: 208/2.

(31) الآية 77 من سورة الأنبياء.
(32) ينظر: مغن اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، 424.
(33) سورة البقرة: الآية 187.
(34) سورة النساء، الآية21.
(35) ينظر: الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت، د.ت: 115/1، ومغني اللبيب: 898.
(36) الآية 100 من سورة يوسف.
(37) الآية (8) من سورة الصافات.
(38) الآية (42) من سورة ق.
(39) ينظر: مغني اللبيب: 898.
(40) من الآية (3) من سورة البقرة.
(41) الكشاف: 32/1.
(42) الآية 235 من سورة البقرة.
(43) ينظر: مغني اللبيب 898.
(44) من الآية (67) من سورة المؤمنين.
(45) تفسير القاسمي، محاسن التأويل، تح محمد فؤاد عبدالباقي، اعتنى به وصححه الشيخ هشام البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1994م، 237/6.
(46) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان، مراجعة: صدقي محمد جميل، دار الفكر، 1992م، 412/6-413.
(47) ينظر: النحو الوافي،538/2-539.
(48) من الآية (71) من سورة طه.
(49) الكشاف: 4 /97.
(50) الخصائص 313/2، وينظر: الكامل للمبرد، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر. للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، 82/2.

(51) معاني الحرف للرماني، تحق، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط2-1981م: 96.

(52) الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحق: حنَا الفاخوري، دار الجبل بيروت.1997م. 82/2.

(53) ينظر: السابق، 96.

(54) الآية (52) من سورة آل عمران.

(55) حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه-محمود سعيد- منشأة المعارف-الإسكندرية-د ت، 232.

(56) من الآية (48) من سورة آل عمران.

(57) من الآية (4) من سورة البقرة.

(58) تفسير القاسمي، 83/4، 239/2.

(59) الكشاف 577/1.

(60) الآية (32) من سورة ص.

(61) ينظر: الكشاف 327/3.

(62) ديوان امرئ القيس، تحق. محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، ط2. 1969، 57

(63) الخصائص: 300/2.

(64) الأصول، لابن السراج، تحق. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط3-1988، 1/ 414.

(65) ينظر: مغني اللبيب، 150-151.

(66) ينظر: شرح أبيات المغني، لعبد القادر البغدادي، نحق: عبد العزيز رباح، أحمد يوسف دقاق، منشورات دار المأمون، دمشق، ط1، 1973م، 123/2.

(67) دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، صحَّحه، محمد عبده وآخر، تعليق: محمد رشيد رضا-دار الكتب العلمية-بيروت، د.ت: 52.

(68) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 367/5.

(69) تناوب حروف الجر في ديوان امرئ القيس، دراسة وصفية تحليلية، جامعة محمد خضر– 2011، 37.

(70) ينظر: النحو الوافي، 2: 240/ ومن أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، محمد الخضري، محمد أمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989م: 12.

(71) من الآية (102) من سورة البقرة.

(72) ينظر: مغني اللبيب، 191.

(73) ينظر: النحو الوافي، 2، 542.

(74) الخصائص، 537/2.

(75) النحو الوافي، 537/2.

(76) من الآية (9) من سورة الجمعة.

(77) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكم: 365.

(78) من الآية (27) من سورة الانعام.

(79) تفسير القاسمي: 299/6.

(80) الآية 42 من سورة الأعراف

قائمة المراجع

1- أساس البلاغة، للزمخضري، مكتبة لبنان، بيروت، ط1.

2- الأصول، لابن السراج، تحق: عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1988م.

3- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبدالله بن محمد البطليوسي، مراجعة: عبدالله البستاني، المطبعة الأدبية، بيروت.

4- الإنصاف في مسائل الخلاق بين النحويين البصريين والكوفيين، لكمال الدين أبي البركات الأنباري، ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف، لمحمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط4، 1961م.

5- البحر المحيط في التفسير، أبوحيان، مراجعة صدقي محمد جميل، دار الفكر، 1992م.
6- تفسير محاسن التأويل، للقاسمي، تحق: محمد فؤاد عبدالباقي اعتنى به وصحّحه الشيخ هشام سكير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1
7- تناوب حروف الجر في ديوان امرئ القيس، دراسة وصفية تحليلية، جامعة محمد خضر، 2011.
8- الجني الداني في حروف المعاني، للمرادي، تحق: فخر الدين قباوة وموحد نديم فاضل، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
9- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، المطبعة العامرة، القاهرة.
10- حروف المعاني بين دقائق النحو والظائف الفقه، محمود سعيد ، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.
11- الخصائص؛ لأبي الفتح عثمان بن جني، تحق: محمد علي البخار، دار الكتب المصرية، ط2، 1952م.
12- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبدالقاهر الجرجاني، صحَّحه محمد عبده وآخر، تعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
13- ديوان امرؤ القيس، تحق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2ن 1969م.
14- شرح أبيات المغني، لعبد القادر ابغدادي، تحق: عبدالعزيز رباح، أحمد يوسف دقاق، منشورات دار المأمون، دمشق، ط1، 1973م.
15- شرح الأشموني لألفية ابن مالك، تحق: عبدالحميد السيد محمد عبدالحميد، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، 1993م.
16- شرح الرضيب علي الكافية، رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي ، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، 1978م.
17- شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب بيروت، مطبعة المثني، القاهرة.

18- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، تحق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1.
19- الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرم، تحق: حنّا الفاخوري، دار الجيل ، بيروت، 1997م.
20- الكامل للمبرد، تحق: محمد أبوالفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة.
21- الكتاب لسيبويه، تحق: عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية للكتب، 1975م.
22- الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت، د.ت
23- اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي البقاء العكبري، تحق: غازي، مختار طليمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
24- معاني الحروف للرماني، تحق، عبدالفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط2، 1981م.
25- معجم المصطلحات الأدبية، إعداد: إبراهيم فتحي، دار شرقيات النشر والتوزيع، ط1، 2000، القاهرة.
26- مغني اللبيب؛ لابن هشام، تحث: محي الدين عبدالحميد، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان.
27- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، القاهرة.